بالغزو الصهيوني الذي استهدف السيطرة على أرض الشعب الفلسطيني واقتلاعه منها وتأسيس دولة للمستوطنين اليهود. وبهذا واجه الشعب الفلسطيني خطراً مزدوجاً، وتضافرت ضده نشاطات المستعمرين البريطانيين والمستوطنين اليهود الوافدين تحت الراية الصهيونية. وأيّد البريطانيون هدف الصهيونيين بانشاء الوطن القومي اليهودي على أرض فلسطين، ووضعوا امكاناتهم في خدمة العمل لتحقيقه. هذا الظلم المزدوج، وهذا الخطر المزدوج، والقوة الهائلة الناجمة عن تعاون ممثليه الاستعماريين والصهيونيين، لوّنت التجربة الفلسطينية الوطنية المعاصرة بلون ميّزها، منذ البداية، عن تجارب جاراتها العربيات القريبات والبعيدات؛ وهو تميّز دفعت الحركة الوطنية الفلسطينية اثماناً باهظة قبل ان تتمكّن من التعرّف على حدوده كافة وتتصرّف بهدي ذلك. ولكن تأثير هذا التميّز على الممارسة الديمقراطية في تجربة الحركة الوطنية في فلسطين بدأ، بمقدار أو بآخر، قبل تبلور المعرفة به والوعي على أبعاده. ويكفي التذكير بأهم تأثيرات وجود هذا الخطر المزدوج على صياغة المواقف والممارسات الفلسطينية. ففي البلدان المجاورة لفلسطين، وجد الاستعمار التقليدي طبقات وفئات اجتماعية متعاونة معه أو مستفيدة من سياساته على أساس هوامش مشتركة تمثلها رغبة هذه الطبقات والفئات في تعزيز امتيازاتها القائمة، ممّا جعلها تجد في التحالف مع قوة المحتل وسيلتها لتحقيق هذه الرغبة. كما وجد، في هذه البلدان، مَنْ توّهم ان بالامكان التدرج في تطويرها بالاستفادة من معونة الدولة المستعمرة، فدخل في مفاوضات أفرزت برلمانات وانتخابات من نوع أو آخر الى ان انتهى الامر بالاستقلال المقترن بمعاهدات تشتمل على مقدار أو آخر من مصالح الاطراف كافة. أمّا في فلسطين، فان هذا المسار التقليدي لتطوّر المستعمرات قد فشل، لأن تضافر الخطرين الاستعماري والصهيوني جعل طبقات الشعب الفلسطيني كلها مستهدفة، كلها بغير استثناء، ما دام الهدف هو اقتلاع الجميع من الوطن ومصادرة ما بحوزتهم، سواء كان أرضاً أو متاجر، أو محترفات، أو مصانع. لقد وجد فلسطينيون كثيرون توهموا، في البداية، ان من الممكن استرضاء بريطانيا والتلويح بالمنافع التي ستجنيها برضى الفلسطينيين وموافقتهم لو تخلّت عن تأييدها للمشروع الصهيوني. وانقضى ما لا يقل عن عشر سنوات من عمر الحركة الوطنية في العمل في هذا الاتجاه، الى ان اتضحت استحالة الفصل بين المستعمرين والصهيونيين، فاتّحد الفلسطينيون في ثورة ١٩٣٦، حيث وقف الشعب الفلسطيني بفئاته كلها في جهة، ووقف المستعمرون والصهيونيون في الجهة الاخرى. والفترة الوحيدة التي تزعزت فيها الصفوف الوطنية هي الفترة القصيرة التي أظهرت فيها بريطانيا ميلاً لتخفيف غلواء المشروع الصهيوني.

هذا الوضع، الخاص بفلسطين وحدها، كما يمكن ان نرى بوضوح، أثّر على بناء الحركة الوطنية الفلسطينية فميّزها، بدورها، عن جاراتها، فأثّر، بالتالي، على الممارسة الديمقراطية فيها. فقد هيمن على قيادة هذه الحركة ممثلو القوى التقليدية السائدة، وهم المحافظون من ملاك الارض ورجال الدين ومن يواليهم من وجهاء المدن. سيطر هؤلاء على قيادة الحركة الوطنية ليس بالتحايل ولا بدعم السلطة المستعمرة، ولكن بحكم تصدّيهم لمقاومة المشروع الصهيوني الذي استهدفهم مثلما استهدف فئات الشعب الاخرى كافة، فظفروا ليس بالسلطة القيادية، وحدها، بل بالتأييد الشعبي الواسع، أيضاً. ولم ينشأ في فلسطين على نطاق واسع، كما نشأ في غيرها من المستعمرات؛ هذا النوع من البرجوازية المدينية، التجارية والصناعية، التي يتقدم المستنيرون من صفوفها، ويشغلوا مواقع فعّالة في الحركة الوطنية، ويفرضوا فيها صيغاً متقدمة للممارسة السياسية، ذلك ان الصعود البورجوازي على حساب القوى التقليدية، كان في فلسطين من حصة الجانب اليهودي، بالدرجة الاولى، وقد قاوم